## المقاومة اللبنانية: الإرادة التي لا تقهر

# انتصار الدم على السيف

د. محمد أحمد الخضراوي*

### سقوط الأوثان الحضارية

أن للثعلب دينا؟ يخطئ من ظن يوما أن يخدع الثعلب. أقبلت القديسة الأمريكية «رايس»، إلى «الشرق الأوسط الجديد» في لبوس الراهبات المتبتلات، تظهر التنسك وتحمل بيدها سلة من المبادئ والقيم الإنسانية وأخذت تصلي من أجل اللبنانيين وتنشد أمام الصحافيين ترانيم الخير والمحبة حتى يبعثها الإعلام إلى أرجاء البلد المنكوب. كان طبيعيا أن يستأنس المتابعون للشأن اللبناني بهذه الروح اللاهوتية العالية التي نزلت على لبنان النازف، تحمل إليه الخلاص من عذابات العدوان وتلقي إليه بسلام البيت الأبيض كبلسمة لجراحات الظلم الصهيوني. لكن، ما راع الناس بعد انصراف الفاتنة رايس من مأدبة العشاء المفتوح الذي جَمَعَ في المعبد الأمريكي (حيث إقامة السفير ـ أولئك الذين فقدوا البوصلة الوطنية)، إلا وقد انهمرت على المدنيين العزّل آخر العطايا الأمريكية المصممة لإبادة الآمنين، لتعيد صياغة مجزرة قانا في جزئها الثاني بأكثر تراجيدية وأشد فتكا وتدميرا، حيث قتل 39 طفلا تحت أسقف المنازل من جملة 60 مدنيا أحاط بهم الموت من كل جانب وهم نائمون. كانت صلاة الوزيرة السمراء، قشرية ومظهرية خادعة تماثل دين الثعلب الذي أحكم تزييف الخارج ليظهر به التخشع، ورتب خطابه الديماغوجي المراوغ ليغالط به فرائسه التي أرهقه اصطيادها. غير أن الغابة ما لبثت أن كشفت البعد الدرامي الكامن وراء السيناريوهات الرومانطيقية المخاتلة التي ترسل إلى الجماهير، وفهمت أن الثعلب ينتمي إلى إمبراطورية الشر التي لا يدين رؤساؤها بدين. إن هم إلا كائنات معادية للحرية وللديمقراطية، لا يمكنها أن تتخلى عن المناخات الدموية التاريخية التي صنعت حاضرها الاستعماري. فالقمع حالة عيادية لا تنفك عن الإنسان النرجسي الذي لا يرى في الكون غير ذاته المتعالية، ولا يفارق قيمه التعاملية مهما أضاف إليها من الرتوشات والمساحيق المضللة عن الصورة ـ الأصل والوجه الحقيقي. لقد مثلت وزيرة بوش الصغير البلطجة السياسية التي لا سبيل إلى السيطرة على إرادة الجماهير وعلى بسط النفوذ على المشرق الجديد من دونها. لا أدري إن كانت واقعيتنا أم وقوعيتنا هي التي حتمت علينا الاقتناع بأن الأمم لا تزول وإن زالت أخلاقها وتبنت الشراسة منهجا للحياة. غير أن فرويد حين كتب «عياء في الحضارة الغربية» (ص 65) جزم بأن الطبيعة العدوانية تظل تهدد مجتمع الحضارة على الدوام بالتقوض والهدم والدمار. أي أن الشر المحض متى ما كان مولدًا للتدبيرات السياسية، أنتج التكاره الحضاري وقاد التطور إلى الإنهيار. وقد حسم المثقفون العرب رأيهم في هذه السطوة الاستعمارية التي تقود العالم إلى صدام الثقافات بدل حوار الحضارات الذي أسسه الرئيس الإيراني محمد خاتمي. فقد تحدث سامي أدهم في «العدمية النهيلستية» عن فاشستية النص الأمريكي، والعدوانية النصية المتجملّة بالقناع الديمقراطي (ص125). ووصف إدوارد سعيد المستشرقين بكونهم وسطاء امبرياليين وصانعين للسياسات الغربية (ص 252) وذلك في كتابه «الاستشراق» الذي أكد أنه أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه (ص39). وبما أن المثقف الغربي عجز عن تجاوز مركزيته كما كتب هشام جعيط في «أوروبا والإسلام» وعجز عن مغادرة الفكر العدواني القائم على الأسس الانفعالية وتمَثّلَه (بضم الثاء المشددة) الاسلامَ ذلك التمثّلَ المجبولَ أساسا بالعداوة (ص 18)، فإن عالم الحضارة الفسيحَ، تحولّ إلى مسرح روماني شاذ عن كل حقوق المدنية والمواطنيّة، وقد زرع الرعب في كافة أرجائه وخيم الموت على ساحاته.

لقد تبدت استراتيجيا العنف الاستعماري حين زرع الغرب الكيان الاسرائيلي المحتل في جسد الأمة العربية منذ 14 ايار (مايو) 1948، وحوّله من اجتماع لمستوطنين،آفاقيين (شذاذ آفاق) إلى دولة عاتية تمتلك 600 طائرة حربية، و80 بارجة، و9000 من الآليات العسكرية و200 قنبلة نووية ولا تتوقف عن التباكي الدائم وعن الشوشرة والضجيج لتظهر بمظهر «المدافع عن النفس والمتخوف من إزالة إسرائيل من الوجود». وذلك من أجل تبرير نظام الآبارتايد الذي تقيمه في فلسطين، والتغطية على أطماعها التوسعية التي تدفع بها في قرن ما بعد الحداثة إلى الاعتداء على دول الجوار، وما تزال تعاود، بحسب الأمزجة الحاكمة فيها، استهداف لبنان الذي فقد كل إمكانات القوة منذ أن سقط في حرب طوائفية سنة 1975، حين انفلتت كل موازين الحكمة من عقول المرجعيات، لتتحول الكلمة من العقلانية إلى ألعاب نارية تحصد أرواح المواطنين الأبرياء. وهكذا حتى تشكلت المقاومة الوطنية الإسلامية (1982) لتلغي كل المساومات على البلاد وعلى العباد، وعاد الفرقاء يستنيرون بالحكمة وبالموعظة الحسنة وينشرون السلام الاجتماعي في أنحاء البلاد. وإذا كان لبنان ثاب إلى رشده وعاد إلى أنواره وإلى عقلانيته الأولى، فإن الوطن العربي ظهرت فيه أمارات لفقدان الرشد واضطراب الوعي وسقوط العزة. فالتيارات التكفيرية بدأت تقرع طبول الحروب الطوائفية لتحول العالم العربي إلى أشلاء جاهزة لإقامة الشرق الأوسط الأمريكي عليها.

### الفتاوى الطائرة والوعي المأزوم

إذا كان دعاة التفرقة يتسمون دائما بالرعونة واللامسؤولية،والفوضى، فإن الشيخ البائس صاحب الفتوى التحريضية الذي لم يختر من أجل الظهور الإعلامي إلا موقف المنازلة الطوائفية في هذه اللحظة المفصلية والحاسمة من تاريخ الأمة، قد فقد كل حصافة دينية، وسعى لاشعوريا أو شعوريا إلى تدمير النص المقدس الداعي إلى التوحيد ونبذ الإفتراق والصدامية وهو قوله تعالى «وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» سورة آل عمران 103. وقديما قال الفقهاء: الفتنة نائمة، لعن الله من أيقظها.. لم تفاجئنا المقولة المتكلسة للشيخ المشبوه وقد جاءت توقظ الحساسيات البائدة، وتحاول إعادة تخدير الأمة التي تخلصت من عقالها التاريخي السلبي. فالشيخ الخليجي الذي ينتمي بهذا القول التخذيلي إلى الطابور الخامس ـ طابور المستشرقين وأدوات الاستعمار، من المثقفين الارتزاقيين والعملاء (أو العلماء) المأجورين، دعا إلى خيانة لبنان، حين نادى بالتخلي عن مساندة حزب الله، وعدم التدخل ولو بالدعاء لدى القدر الإلهي لمنع المجازر عن الأطفال وعن النساء، وحرّم طلب اللطف الإلهي بالمقاتلين المسلمين الذين يدافعون عن كرامة الأمة فنجح كل النجاح في تبرير مذهب شارون الذي يمثله، حسب توصيف قناة «المنار» أدولف أولمرت الدموي الذي استباح الأموال والأعراض والأنفس والثمرات. وهي مصطلحات دينية تخولّ أوتوماتيكيا الدفاع الشرعي عن كرامة النفس البشرية دونما فتوى أو فلسفة في الدّين. ففي النص النبوي: «من قُتل دون ماله أو عرضه فهو شهيد». لذلك، كان حفظ الذّات الإنسانيّة من المسائل المركزية في مقاصد الشريعة الإسلامية وإن عميت عنها الفتاوى المذهبية والكهنوتية المتخشبة وألحقت بها هذا التشويه الخطير.

لقد حسم عقل النبوة إيجابيا في قضية الصراع التاريخي بين فكر الأنا ورأي الآخر، فأعلن أن الذوات البشرية تتكامل باعتبار وحدة العقل الإنساني، وتنسجم بحكم طبيعة العيش في العالم الالهي المشترك بين مختلف المكونات الوجودية، فأحسن النبي عليه الصلاة والسلام صياغة استراتيجيا حضارية تستند إلى مبادئ روحية وإنسانية تجميعية لا إقصاء فيها. لقد أسس الرسول الكريم دستورا مدنيا بالمدينة المنورة، شرّعَ (تشديد الراء) به حوار الحضارات بين المسلمين والمسيحيين واليهود، لكنه آخى قبل ذلك بين الأوس والخزرج ونزع من قلوبهم الغل والحقد وإرادة الفتنة الجاهلية التي حاول إيقاظها عبدالله بن أبي بن سلول (اليهودي أو العبري) في مجتمع المدينة، وتنظّر (تشديد الظاء) لها الفتاوى المذهبية والتكفيرية الخارجة عن حركة التاريخ اليوم. وإذا كانت الواقعية النبوية أسست التواصلات الاجتماعية بين مختلف المكونات الاثنية (العرقية) والطائفية فلكونها أرادت بهذه السياسة الوقائية (من الفتن) توحيد الأمة ضمن بناء متين يحمي من التمزق والضعف والهزيمة. لكن، دون الانزلاق إلى الاستسلامية والتسامح الساذج والتواصلية اللاعقلانية. كان النبي صلى الله عليه وسلم حازما منذ البدء. حيث فرّق وهو في مكة، بين المتآمرين على المصالح الوطنية وبين المناصرين لقضايا الأمة. وذلك حين مايز بين أبرهة، الملك المسيحي، الذي قدم من أجل تدمير الكعبة وهدم الرمز الديني الأسمى، فجعل الله كيده في تضليل، وبين النجاشي، الملك المسيحي الآخر، الذي قبل للمسلمين لجوءهم السياسي إلى بلاده، وأدان القمع العربي الذي مارسه المجتمع الجاهلي ضد المجموعة الايمانية الأولى، فصلى عليه النبي الكريم صلاة الغائب (صلاة الجنازة عن الميت البعيد جغرافيا) عندما مات. وتلك أعلى مراتب التشريف. الغريب أن الشيخ (صاحب الفتوى) التائه في الأنفاق المذهبية المظلمة، لم يسمع له صوت حين هدّد الصهاينة بغزو «خيبر» (المدينة المنورة) والوصول الى مكة المكرمة كما وصلوا الى مدينة بيروت، ولم يردّ على دعوات السياسيين الأمريكيين الذين حرّضوا على قصف الكعبة المشرّفة بصواريخ تقليدية أو نووية، ولم تصدر منه إدانة لغزو لبنان منذ العام 1982، أو احتلال العراق وأفغانستان، ولم يغضب للإبادة الجماعية والتدمير المنهجي الذي يطال في كل يوم فلسطين والفلسطينيين والمسجد الأقصى الذي يسعى الاسرائيليون الى تقويض بنيانه من الأساس. لقد أثبتت الايديولوجيا المذهبية عجزها عن مواجهة الشر ومقاومة العدوان، وراحت تتعيش من البلاطات حتى استفحلت فيها نزعة الهزيمة فتناغمت مع مشاريع الفتك بمبادئ الأمة وهويتها الدينية، وتحيزت الى خياراتها الامبريالية الاستكبارية. وهكذا استدار الزمان بهذه الفئات الهامشية حتى ألبسها منطق بني إسرائيل التاريخي حين رفضوا المقاومة وحمل السلاح مع نبي الله موسى عليه السلام، وجاهروه بالخيانة والوقاحة قائلين: «قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» سورة المائدة 24. فكان طبيعيا أن يصطدم هذا الفكر الانهزامي مع القيم الثورية للكائن الإيماني المعاصر الذي لا يقيم وزنا للسفسطات الإفتائية والمهاترات المدرسية. وبالمقابل، فإن حزب الله اللبناني تعامل مع الواقع الاستعماري طبقا للمنهج الاسلامي المنافي والمناهض لعقلية بني إسرائيل الهروبية. أي أنه تعاطى مع المستكبرين كما تعاطى معهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البدريين. فحين قرّر النبي الكريم إقامة توازن قوى، مع النظام القريشي القمعي وأخذ يستعد لمعركة بدر، وسأل المساندة الاجتماعية، صدر عن المقداد بن عمرو موقف ممثل للوعي الديني لدى المقاومين المهاجرين القادمين من مكة المكرمة، فأعلن النصرة والولاء الكامل للنبوة، والبراءة من غدر بني اسرائيل التاريخي للأنبياء، وقال: يا رسول الله امض لما أراك الله، فنحن معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى «قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدَاً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ». ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. (سيرة ابن هشام) وقد بين سعد بن معاذ زعيم الأنصار(سكان المدينة الأصليين) الفارق العملي بين النضالية والانهزام حين قال للنبي الكريم: «لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك»، «إنا لصُبُرٌ (بضم الصاد والباء وتنوين الراء) في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء (نفس الحركات). فبين أن النصر والهزيمة يكمنان كلاهما في مدى الشجاعة أو الخوف من العدو».

إن المجهود التعبوي الذي انخرط فيه النظام الرسمي العربي متحالفا مع بعض الفتاوى الرسمية (هي الأخرى ـ وليست الشرعية)، من أجل رسم صورة نمطية لمقاومة المسلمين في لبنان للعدو الصهيوني، يرتكز على تأجيج المشاعر التنفيرية وإحداث الصدام بين المسلمين تحت مسمى المغامرة أو التشيّع لرسول الله وآل بيته الكرام واتهامها بالاندفاع والمجازفة كبديل عن العقلانية الاستسلامية، لكنها لم تحقق بهذا العنف القدحي هدفها التخذيلي. إذ تعزز، على عكس المقصود، الإجماع الشعبي اللبناني والعربي والعالمي، ولم تعد الفتاوى الفضائية المهزوزة تعطل مسار الكرامة الإسلامية الثائرة. لقد أسقطت الشعوب وهمُ المركز الذي استحوذ بموجبه بعض من استوطنوا المناطق المقدسة واحتكروا العلم الديني (بوصفهم الممثل الشرعي والوحيد للإسلام والمسلمين)، ليبثوا من وراء ذلك التفرقة المذهبية وينشروا القراءات الحرفية والمدرسية للشريعة الاسلامية بعد فصلها عن بعدها الحضاري العالميني (الموجه للعالمين). ولهذا، لم يعد لهذه الفتاوى العلموية (غير العلمية) من وقع عاطفي، بل ردود فعل شاجبة ومستنكرة لها ولكل من يدنسون نصاعة الاسلام ويريدون ليطفئوا الأنوار الالهية بأفواههم المرتجفة. لا جدال في أن العالم المسلم الموضوعي، حسب منظومة الفهم الديني المستَنير، هو من لا تُعْتَمدُ مقولاته وفتاواه باعتبار انتمائه المذهبي والطائفي، أو بمقامه الجغرافي، بل بالعلم والعمل. أعني بمواقفه العملية والتزاماته الميدانية المتعلقة بالقضايا العربية والاسلامية ضمن الصراعات والممانعات السياسية القائمة ضد القوى الاستكبارية في العالم، في إطار ما يعرف بفقه الواقع وفقه الأزمات. وإلا، فإن اغتيال الهوية الدينية، وقمع الشعوب، والمتاجرة بالقضية الفلسطينية، واعتبارها مشروعا للمقايضة والمزايدات السياسية، قد خضع على مدى عقود من الزمان لماركوتينغ الفتاوى التجارية المنبجسة من التبعية لمركز القرار ومواقع الهيمنة. ولهذا، كانت مواقف أحرار العالم من المسيحيين والبوذيين والعلمانيين والملحدين أكثر جرأة ودعما لقضايا التحرر من هذا البازار الإفتائي ذي الخط التراجعي الغائب عن الواقع المعيش، وعماً يدبر للمستضعفين من مخططات تدميرية داخل المؤسسة الانسانية. وبالنتيجة، ستظل هذه الفتاوى الصفراء تعيش وضعا شيزوفرينيا. أعني، حالة من اللاتطابق بين مطالب الدين اللامنفعية كما دعا إليها النبي الكريم عليه السلام وبين المطالب السلطوية، كما يحددها «الأمير» في إطار الدنس المادي واللاأخلاقية حسب التفسير الماكيافللي (كما ورد في كتابه: «الأمير»)

### ثقافة المقاومة وتحرير الانسان

حينما تولى سماحة السيد حسن نصر الله قيادة حزب الله عام 1992، لم يكن له من العمر سوى 32 عاما (ولد عام 1960 ببرج حمود ببيروت)، في حين كانت تلك الحقبة من أحلك فترات تاريخ أمتنا الصراعي. فقد تم تدمير العراق بمشاركة عربية (1991)، ووُقّع (ضم الواو وتشديد القاف) اتفاق أوسلو بدعم عربي (1993) كحجر أساس لبناء الشرق الأوسط الكبير بزعامة اسرائيلية. في ذلك الوقت أيضا، كانت القوى الاستعمارية تتنزه في لبنان باعتباره فضاء مفتوحا لكل عربدة عسكرية لكونه الحلقة الأضعف في خاصرة الجسد العربي، والبلد الأقل كفاءة قتالية من بين دول الطوق. كان طبيعيا لزعيم شاب في أضعف دولة في المنطقة أن ينهزم ويتراجع وينتهي إلى تسويات مذلة كما جميع حكام الأمة، مقابل ثمن بخس ودولارات معدودات لا تدوم. غير أن حركة التحرير الوطني اللبناني المسماة حزب الله، اتخذت لبناء ذاتها استراتيجيا نموذجية أسست لانتصارات المستقبل البعيد: فقد قبلت من جهة وطنية بالواقع الاجتماعي بفسيفسائه الطوائفية فرفضت في كل الأوقات الدعوة الى إقامة دولة اسلامية، ونأت من جهة إيمانية بنفسها، رغم كونها أكبر الطوائف اللبنانية، عن الوليمة السياسية التي تتزايد عليها مختلف القوى الأسرية والعشائرية، فاستطاعت (حركة التحرير) بهذه الشفافيّة المنهجية أن تصنع معادلة جديدة في الشرق الأوسط تقوم على ممارسة القيم العقائدية في مجتمع متعدد واحترام المفاهيم الكلية للعيش الجماعي في وطن مشترك. كان هذا هو الرأسمال الاجتماعي للمقاومة الذي استقطب مختلف الفئات والشرائح والقطاعات من جميع الطوائف، ما أدى إلى تحجيم الدور الصهيوأمريكي الطمُوح إلى زعزعة بلد الصنوبر، دون جدوى. إذ لا مكان للمستعمر في مناخ التوافق السوسيولوجي الذي لم تشهد البلاد العربية له مثالا. وبالنتيجة، فإن القوات الإسرائيلية المدعومة أمريكياً خرجت مهزومة منكسرة من لبنان الذي أرادته الرأسمالية العربية ملهى ليليا ومكانا لشم الهواء. ولأول مرة في تاريخ المنطقة منذ 60 عاما، تهزم إسرائيل الأمريكية (في 25 ايار ـ مايو 2000) ومن قبَل البلد الأصغر مساحة وعددا وإمكانيات، وإن كان الأكبر عقلا ونضالية. وقد برهن الشيخ حسن نصر الله على هذه العظمة اللبنانية حين وجه في خطابه الخامس منذ بدء الحرب على لبنان (في 12 تموز ـ يوليو 2006). وذلك يوم الخميس 3 آب (اغسطس) 2006 تهديدا واضحا وصريحا لإسرائيل: «إذا ضربتم عاصمتنا بيروت فسنضرب عاصمتكم تل أبيب» وهو تحدّ لم يحلم به عربي في منام قط. بل إنه لم يُعْرَض حتى في الرسوم المتحركة للأطفال على أساس الخيال السينمائي الذي يسمح باللذة دون تحقيق هذه اللذة. ثم إن الدور النضالي الطلائعي للمقاومة لم يتوقف عن إثبات جدارته السياسية، فتوصل عام 2004 إلى كسر كبرياء العدو وتحرير 450 أسيرا لبنانيا وعربيا من سجون الاحتلال. ولم يتوقف كفاح هذا الشيخ القائد عند هذا الحد، بل إن سيد المقاومة سماحة السيد حسن نصر الله أعلن أن العام 2006 سيكون بشكل استراتيجي عام تحرير الأسرى، إذ لا مجال لإذلال أطول للمسجونين اللبنانيين في سجون الاحتلال. وهكذا «أنجز حرٌ ما وعد». فكانت عملية الوعد الصادق التي تم على إثرها أسر جنديين اسرائيليين. غير أن الكيان الصهيوني الأسير للأجندا الأمريكية والخادم لمصالحها في المنطقة، سارع إلى اجتثاث الروزنامة الكولونيالية من سياقها الزمني، واستبق الضربة الاستباقية المعدة سلفا للاعتداء على لبنان وتمزيقه على الطريقة العراقية ضمن مخطط الشرق الأوسط الصهيوأمريكي. أثبتت حركة الكفاح اللبنانية التي يمثلها حزب الله من خلال العدوان الصهيوأمريكي الحالي ثلاثة أمور: الأول هو أنها مقاومة جماهيرية مسلحة طويلة الأمد تقتصر على الصمود والتصدي للمعتدين على حرمة لبنان (ولا علاقة لها بالفتن الداخلية). وبكلام آخر، ليست المقاومة جيشا نظاميا يعتمد على آلات وألوية عسكرية تناهض جهاز الدولة، وإنما هي مقاومة شعبية تستمد قوتها من طول المدى الزمني الذي يفعل فعل الموت في الجيوش التقليدية. وهي بهذا، تدعم استقلالية البلاد ودستورها. والأمر الثاني، هو أن النشاط العسكري لحزب الله عملٌ مكملٌ لنظامية الجيش اللبناني، وداعم سياسي لدولة لبنانية قوية ذات سيادة واستقلالية عن القرارات النازلة من القوى الامبريالية المهيمنة، عبر العولمة العسكرية على العالم الحر المقاوم. والأمر الثالث، هو أن المقاومة أسقطت أكذوبة أمريكا الأم الحنون التي تعطف على لبنان في زمن السلم وتعصف بها في زمن الحرب. وذلك حين تقدم لمستخدميها العرب مآدب ومآكل جماعية (مثل وليمة رايس الشهيرة في عوكر) بينما تُقدِّمُ لاسرائيل قنابل ذكية من أجل أن توقع بالشعوب مجازر جماعية.

لقد أسقطت حرب أدولف أولمرت على لبنان المستقل القناع عن مسرحية السلام وعن سيناريوهات التطبيع التي لم تكن في الواقع سوى استراتيجيا حربية تحدّ من جبهات القتال لتوفير الجهد الإسرائيلي العسكري. فمنذ اقتراح السادات الرئيس المصري المقبور معاهدة سلام عام 1971 التي لم تحظ بالقبول إلا بعد حرب أكتوبر (التي دامت ستة أيام) عام 1973 وما ذاك، إلا من أجل إخراج مصر من الصراع العربي ـ الاسرائيلي وتحويله إلى حليف استراتيجي للكيان الصهيوني المحتل، ومتآمر حسب الطلب الأمريكي على قضايا الأمة. من أجل هذا، شجع النظام المصري صدام حسين على حرب إيران على مدى سبع سنوات، وساعد أمريكا على تدمير العراق عام 1991 وعلى احتلاله عام 2003، ورفض غزو العراق للكويت، وفي المقابل رضي بالغزو الصهيوأمريكي على لبنان. السلام إذن مقالة حربية تكتيكية. والدليل أنه منذ اقتراح السلام من قبل السّادات عام 1971 لم يتم الانسحاب من سيناء إلا عام 1982، ليقوم الكيان المراوغ بالاحتلال الفوري للبنان في ذات العام ومن دون أن يتوقف في الأثناء (خلال فترة السلام المزعوم) عن العربدة في المنطقة العربية. فقد هاجم الاحتلال الاسرائيلي المخيمات الفلسطينية في لبنان عام 1975، وظلت اسرائيل تتعقبهم حتى وصلوا إلى الأراضي التونسية فقصف مقر منظمة التحرير وما حوله بحمام الشاطئ في تونس عام 1986، وصُنِّفَ الاعتداء كالعادة «دفاعا عن النفس». ولا ننسى كذلك قصف المفاعل النووي العراقي عام 1981 دفاعا عن العرض (الإسرائيلي). إذ لا يجب أن ينازعه في الكفاءة التكنولوجية والحربية منازع حتى يبقى واحدا لا شريك له في المنطقة. إذا كانت اسرائيل تدمر لبنان عام 2006 من أجل جنديين مأسورين في أراضيها، وإذا كانت أمريكا قصفت الأراضي الليبية وقتلت الأطفال بموافقة مجلس الأمن عام 1986( نفس تاريخ العدوان الاسرائيلي على تونس) من أجل موت جنديين في ملهى في ألمانيا إثر انفجار لم يُكشف مدبره، فهذا يعني أن السياسة الرسمية لمجتمع العولمة الجديد هي سياسة إرهابية مسعورة انطلاقا من أمريكا العنصرية، مرورا بنظام الآبارتايد في جنوب إفريقيا وانتهاء بالممارسات النازية للكيان الصهيوني المحتل في فلسطين.

ضمن هذه المعطيات يتأكد أن المقاومة عمل دفاعي استراتيجي ضروري لكل بلد مستضعف في العالم. إذ لا سلام بين من يمتلك الطائرات والبوارج الحربية والقنابل النووية، ومن لا يمتلك إلا بنادق الصيد للدفاع عن النفس وأسلحة كرتونية وألعابا نارية تعرض في المواكب والمناسبات الرسمية لاستقبال أصحاب العظمة. لقد ثبت في الواقع التجريبي أن القانون العالمي لا يحمي المغفلين (والمغفلون هم الضعفاء). كما أن القانون الذي قال عنه بن غوريون انه ممْسَحة من ورق كما أخبر بذلك روجيه غارودي ـ لا يمكنه أن يصنع معادلة ردع وحجز عن الظلم بإزاء نظام القوة والغلبة. لقد فضحت حرب لبنان 2006 نظرية العدالة الكونية التي باتت قيمة مهدورة في ردهات الأمم المتحدة وخرقة ملقاة في كواليس مجلس الأمن. من أجل هذا الإختلال في المؤسسة الانسانية، جاء في القرآن الكريم أن القوة وحدها هي التي تحجز القوة. قال تعالى: «وَأَعِدُواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ» سورة الأنفال 60. فدعا جهرة إلى سباق التسلح من أجل إحداث امكانات مادية لرد العدوان وإحداث توازن رعب عبرت عنه نهاية الآية بالقول: «تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ». وهذا يعني، أن الدفاع عن النفس لا يحصل إلا باكتساب أسباب القوة، وبحجم التسلح الذي يهابه العدو لكونه يمثل نظاما للردع وإمكانا لالحاق الهزيمة بالمعتدين. وما دام النظام العربي الرسمي قد أعلن حالة «السلام»، وانصرف إلى تنمية الموارد البشرية ـ البيولوجية (الجسدية) عبر قنوات المجون والسمسرة على الأجساد العربية (وهي بضاعة مزجاة في عالم الجمال والدلال المعولم). وبالمقابل، ألحق الشلل بمؤسسات الثقافة والصناعة وحركات المجتمع المدني، وانصرف إلى معانقة رايس وتسيفي ليفني (؟) كرمز لبورنوغرافيا السلام، فإن الأمة العربية الاسلامية مطالبة بانتزاع سيادة الشعب، كمضمون جوهري واحد ووحيد للديمقراطية، وحمل الحكومات، الإنكفائية والعاجزة، على الإستجابة لمطالب الجماهير. وذلك عن طريق الإعتصامات والإضرابات والمسيرات السلمية المتكررة والمواقف النقدية الدائمة، من أجل تهشيم حاجز الخوف والهلع، بهدف تشريك كل الشرائح والقطاعات الشعبية في عملية التحرير. لأن الحاكم العربي، رغم كل ملفاته المشبوهة وتاريخه المعروف بالدناسة، يقوم الارتزاقيون من خلال الهرسلة الإعلامية المحتكَرة من قبل السلطة، بغسيل الآثام والشرور التي ينفثها في المجتمع بتوصيات خارجية متعالية، ويحولون فجوره السياسي إلى مناقبيةٍ يصير بموجبها طوطما ومعبودا لدى جماعات المصفقين والانتهازيين الذين ينفخون في حجمه الضئيل ليصير زعيما عالميا، وحكيما كونيا، وفلتة من فلتات التاريخ. إن هكذا حاكمية رعناء لا تنتج تقدما ولا تبدع أسباب التطور بقدر ما تسوق البلاد والعباد إلى الإنهيار. ذلك أنها تنسف الانسان والقانون والمؤسسات بقبضة حديدية من وراء سياسة الواجهة التي تظهر احترام الإنسان والقانون والمؤسسات، زورا وزيفا وبهتانا كما شرحت ذلك حنّا آرنت (Hannah Arendt) في كتاب لها من جزءين عن التوتاليتارية. وهكذا، فإن الحاكم الشمولي لا يتورع عن تدمير الأخلاق التي من دونها تنعدم مصداقيته لدى المحكومين. لذلك لا يثق أحد بخطاباته الخشبية الباهتة المكرورة والجوفاء لأنها تناقض الواقع اليومي الرازح تحت التسلط والقهر السياسي. وقد لاحظت اليونسكو في كتاب بعنوان المواطن السيد لفيليب أوجيي (Augier)، أن مفهوم الديمقراطية بمعنى سيادة الشعب لا يعني شيئا إذا ما اقتصر على التحليلات والتعريفات اللفظية بمعزل عن الفعل الحضاري وعن الممارسة الموضوعية. فلا يكون للديمقراطية معنى، متى ما انفصلت عن الإلتزامات الاخلاقية (ص 15 ـ 16) ولهذا كان سر تفوق المواطن في لبنان وسبب نجاح المقاومة الاسلامية فيه، أن هذا البلد لم يرزح يوما تحت نظام دكتاتوري جائر يكبل إرادة الشعب ويجرها الى فوضى القرون الوسطى التي ما كانت لتتحرر منها أوروبا لولا الثورة الفرنسية.

ضمن هذا السياق، تكون الدعوات إلى الجهاد في لبنان اليوم (رغم تعيّنه وفوريته) غير منهجية. لأن الحرب هناك، هي حرب تكنولوجيا وعقول واستراتيجيات، لا تحتاج إلى أكوام من اللحوم البشرية تضاف إلى مجزرة قانا والقاع. فالجهاد الملحّ والعاجل هو التحدي الحضاري والسياسي الذي يجب أن تخوضه الشعوب تأسّيا بلبنان من أجل استرداد سيادتها الديمقراطية المهدورة من قبل العصابات التوتاليتارية الحاكمة، وكسب معركة القانون وحقوق الإنسان العربي المسلوبة حتى تتحرر(الشعوب) نهائيا من المحتشدات الكبيرة المُكَبِّل أهلُها (المواطنون الأجانب في وطنهم) بأصفاد المذلة والخنوع والرعب الاستخباراتي. غير أن الأمة العربية، وهي تزدري مراجعها الروحية وتتنكر لخصائصها الهووية (من الهوية)، لن تستعيد مناعتها إلا متى عاودت بناء ذاتيتها الروحية في صياغتها الحضارية الأولى.

و بالمحصلّة، فإن حزب الله حطم أسطورة اسرائيل العظمى بقوة تكنولوجية، وروح تضحوية، وقيم عقائدية في ظل قيادة عقلانية وواقعية مثلها سماحة السيد المناضل حسن نصر الله. هذا الرجل الذي خذله العرب كما خذلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما طلب النصرة من أهل الطائف المتآمرين مع أهل مكة. إلا أنه استطاع، منفردا، أن ينتصر كما انتصر رسول الله منفردا، لمَّا أن جاهد الغزاة المحتلين مستنيرا بمنهج النبوة وتعاليم الرسالة الإلهية. وبالمقارنة، فإنه حينما تُعرض صور الجنود الصهاينة وهم يمسكون بالتلمود وبفتاوى الحاخامات الدموية، مهتزين مترنحين ومتمايلين فوق دبابتهم، فإنهم يستقدمون من التاريخ لوحة حربية، ومشهدا من صراع تاريخي كان أبو سفيان الجاهلي المعتدي يقول فيه: أعْلُ هُبَل (أي أظهر دينك) وكان الرسول عليه السلام يجيب : الله أعلى وأجل. لسنا سواء. قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

إننا، بإزاء التداعي العالمي على الإسلام والمسلمين بالفعل وبالكلمة وبالصمت، نشهد حربا دينية ونعيش صداما حضاريا متوحشا لا يُحسم بآلات الحرب والدمار، بل بالتوازن المتعقّل في إطار أخلاقي يُحقُّ الحقَّ، ويوفّر العدالة، ويُسوّغ العيش المشترك للجميع في عالم لا يستمر ولا يستقر إلا إذا سادته المحبّة وانتشرت فيه رحمة الله رب العالمين.

* جامعة الزيتونة تونس

# لم يحضروا وإنَّما احتضروا!

جواد البشيتي*

■ المشهد الرسمي العربي في بيروت لم أرَ فيه، ومن خلاله، إلا مجلس الأمن الدولي، الخاضع لبولتون المُخْضع له الفرنسي جان مارك لا سابلير، وهو يتوفَّر على منع «حزب الله» من أن يقطف الثمار السياسية للهزيمة العسكرية ـ الاستراتيجية التي ألحقَها بالجيش الإسرائيلي، وإكراهه، بالتالي، على قبول تحويل نصره العسكري الذي لا ريب فيه إلى هزيمة سياسية، يمنى بها، أيضا، كل القائلين بخيار المقاومة القومية من العرب، وباستنساخ الممكن والضروري من نموذجها الجديد الذي بسطه «حزب الله» وشرحه خير شرح من خلال التجربة. ولم أرَ فيه، ومن خلاله، بالتالي، إلا ما يضاد مشهد المقاومة والبطولة والصمود.. والنصر في لبنان، وفي جنوبه على وجه الخصوص.

لمَ كل هذا «البكاء السياسي» الذي عرفَه اجتماع وزراء الخارجية العرب في وقت قرر شعب لبنان أن يكتب «الحل» بالدم، الذي وحده يغسل عار العرب ويصنع لهم أكاليل الغار، وليس بالدمع السياسي الذي يعجز حتى عن جعل العالم يشفق عليهم؟!

لم أرَ في الاجتماع إلا اقتراحا لبنانيا واحدا هو دموع السنيورة، وقرارا عربيا واحدا هو تصفيق الوزراء العرب لها وهم واقفون!

كنتُ أتمنى أن يسيل دمع السنيورة بكاءً عليهم، ففي المشهد الخلفي لم أرَ في حضورهم إلا احتضار الكرامة القومية العربية، فهم جاءوا إلى بيروت وكأنهم هم الذين يخضعون للاحتلال الإسرائيلي، فهلا أخبروا شعوبهم كيف جاءوا.

إنهم لم يجرؤا حتى على التنويه بمقاومة «حزب الله» التي كانوا ينتظرون سماع خبر القضاء عليها بعد ساعات، أو أيام، من حرب «الشرق الأوسط الجديد»، فيَصْدُقُ قولهم «إنها مغامرة غير محسوبة العواقب». وقد أرادوا لنا أن نفهم تلك المقاومة على أنها رجس من عمل الشيطان «الإيراني الشيعي» الذي لم يفتح النار على إسرائيل إلا ليحرق «العرب السنة»، دولا وشعوبا. أقول ذلك وأنا أعلم أنَّ